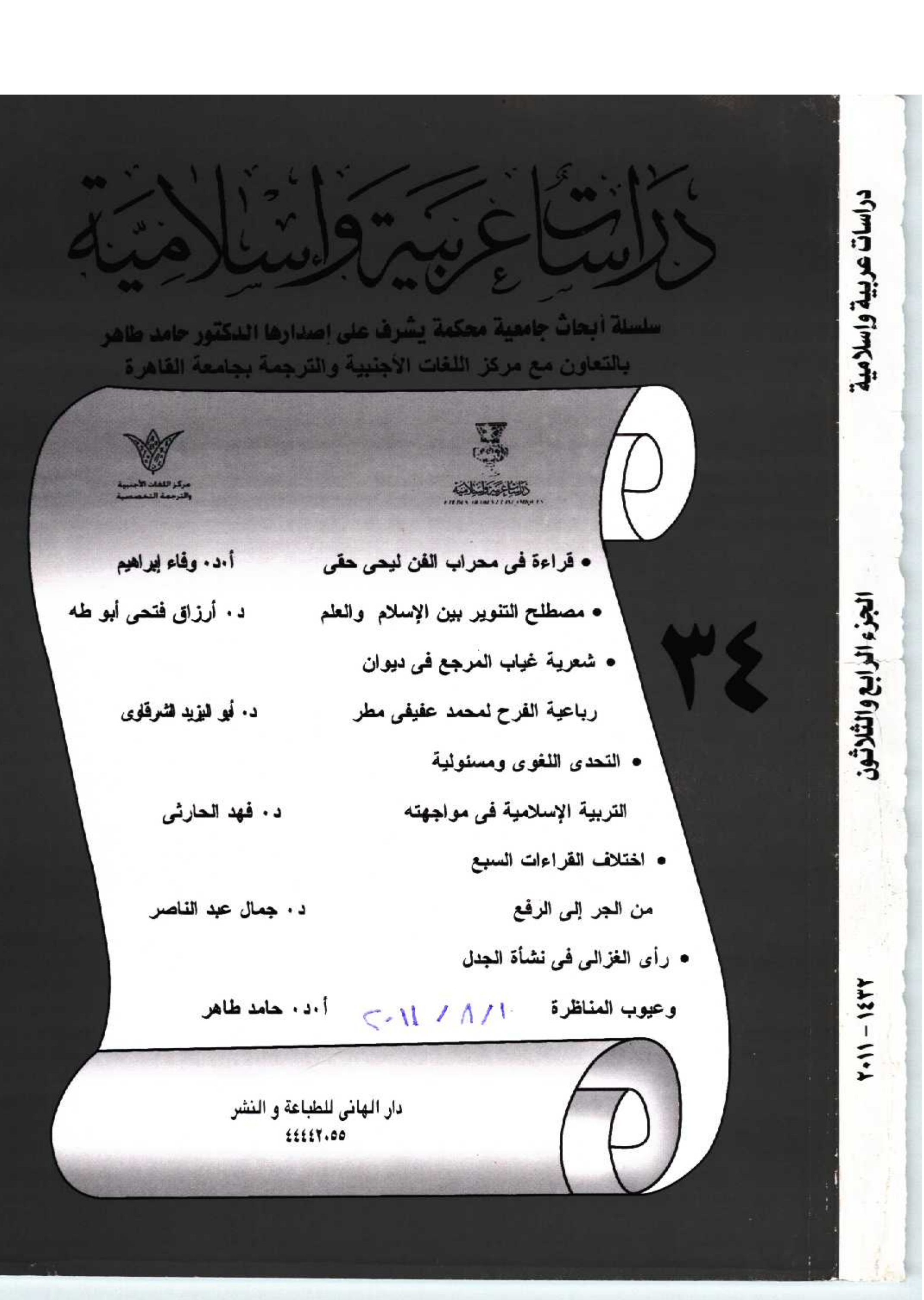



دراسات عربية وإسلامية
سلسلة أبحاث جامعية محكمة يشرف على إصدارها الدكتور حامد طاهر
بالتعاون مع مركز اللغات الأجنبية والترجمة بجامعة القاهرة
• قراءة فى محراب الفن ليحى حقى أ.د. وفاء إبراهيم
• مصطلح التنوير بين الإسلام والعلم د. أرزاق فتحى أبو طه
• شعرية غياب المرجع فى ديوان رباعية الفرح لمحمد عفيفى مطر د. أبو اليزيد الشرقاوى
• التحدى اللغوى ومسئولية التربية الإسلامية فى مواجهته د. فهد الحارثى
• اختلاف القراءات السبع من الجر إلى الرفع د. جمال عبد الناصر
• رأى الغزالى فى نشأة الجدل وعيوب المناظرة أ.د. حامد طاهر
١٠/٨/٢٠١١
٣٤
دار الهانى للطباعة و النشر
٤٤٤٤٢٠٥٥
دراسات عربية وإسلامية
الجزء الرابع والثلاثون
١٤٣٢ - ٢٠١١

سلسلة أبحاث جامعية محكمة يشرف على إصدارها الدكتور حامد طاهر
بالتعاون مع مركز اللغات الأجنبية والترجمة بجامعة القاهرة

دراسات عربية وإسلامية

٣٤

سلسلة أبحاث جامعية ، أنشئت عام ١٩٨٣ ميلادية
يشرف على إصدارها أ.د. حامد طاهر ، نائب رئيس جامعة القاهرة السابق
بالتعـاون مع مركـز اللغات الأجنبية والترجمة التخصصية بجامعـة القاهرة

ت ٣٣٣٥٢٣٧٧ - ٣٣٥٧٥٠٣١
Mail: hamedtaherh @ yahoo.com - hamedtaherh @ hotmail.com
المحمول : ٠١٢٢١٩٤٠١٧
Sit www. Hamedtaher. com

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

دراسات عربية واسلامية ط١ ـ ج٣٤
القاهرة ـ دار الهانى للطباعة ـ ٢٠١١

عنوان الكتـاب: دراسات عربية وإسلامية
رقم الإيـداع: ١٧٥٩٩ لسنة ـ ٢٠١١
الترقيم الدولي: I.S.B.N. 978 – 977 – 468 - 242 – 7

دار الهـانى للطباعة والنشر
القاهرة ـ ٤٤٤٤٢٠٥٥

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديـــم

.. أما هذا الجزء من السلسلة فتغلب عليـه الدراسـات الأدبيـة واللغوية ، في حين غلب الطابع الإسلامي على الجزء السابق. وهذا يـدل على أن التوازن بين البحوث العربية والإسلامية ما يزال هو الطابع التي يميز هذه السلسلة منذ نشأتها في عام ١٩٨٣م ، وحتى الآن .

لكني أريد أن أخصص هذا التقديم لنعي زميـل كـريم ، وعـالم فاضل هو الأستاذ الدكتور أحمد السـايح الـذي كـان أحـد مسـتشاري السلسلة ، وواحدًا من أهم العلماء الذين ساندوها منـذ بدايـة ظهورهـا . كان ، رحمه الله ، يزود السلسلة ببحوثه القيمة ، كما كـان يسـتقدم لهـا بحوث شباب الباحثين الواعدين .

المرحوم الدكتور أحمد السايح واحد من علماء الأزهـر القلائـل الذين جمعوا إلى دراسة التراث العربي والإسلامي معرفة واعيـة بواقـع المجتمعات الإسلامية ، والمشكلات التي تعوق تقدمها وازدهارها ، ولذلك كان حريصا على المشاركة الفعالة في معظم المؤتمرات العلمية التي كانت تعقد بمختلف الدول العربية والإسلامية ، كما أسهم بـدور إيجـابي فـي وسائل الإعلام إيمانا منه بدور العالم في الوصـول إلـى أوسـع قاعـدة جماهيرية ، فنشر العديد من المقالات الصحفية ، وأدلـى بـالكثير مـن

الأحاديث المسموعة والمرئية فى مختلف المناسبات والأزمات التى كانت تمر بها البلاد .

أما أخلاقه على المستوى الإنسانى فقد كان ، رحمه الله تعـالى ، سمحا ، هينا ، لينا ، يسع كل من حوله بالمودة ، كما كان عفيف اللسان ، لم أسمع منه كلمة فى حق أى شخص آخر ، حتى ولو كان يستحق ذلك ..

رحمه الله رحمة واسعة ، وأدخله فسيح جناته ، وجمعنا به علـى خير ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ .

٢٠ رمضان ١٤٣٢

٢٠ أغسطس ٢٠١١

أ.د. حامد طاهر

المشرف على السلسلة

قراءة فى محراب الفن ليحي حقى

أ. د. وفاء إبراهيم(*)

هذا الكتاب يجمع الكتابات النقدية للأستاذ يحي حقي في الموسيقي ، والتصوير، والعمارة ، وفي الحقيقة أن كل كتاب للأستاذ يحي حقي يضيف بل ويسهم على نحو جاد في تربية وعي المواطن المصري وتوسيع خياله ، وأعتقد أن هذه هي رسالته ، فقد أراد أن يكون معلماً للناس عامة والبسطاء خاصة ، ويبدو أنه اكتسب هذه الميزة من خلال عمله في السلك الدبلوماسي ، فعلي السفير أن يوصل جيداً الرسالة حتى لا يؤدي إلي أزمات ، هكذا كان يحي حقي أيضاً في الأدب ، قام بتوصيل ما حصله بوصفه أمانة عليه أن يقدمها للقارئ.

ولقد قدم في هذا الكتاب ما يشبه " فلسفة للفن " ، لأنه تجاوز مجرد تطبيق المبادئ الجمالية على فن ما ، إلي مناقشة هذه المبادئ نفسها وتوضيح مدي ملائمتها إلي هذا الفن أو ذاك ، فهو يرى أن الفن لابد أن يفهم من خلال تاريخ البلد .

مما يؤدي إلي نتيجتين :

أ- لا يوجد فن عام

ب- وبالتالي لا يوجد فن يشكل في تربة أخرى

كذلك من خلال مقالاته النقدية في هذا الكتاب يؤكد في مواضع كثيرة على أن من يدعون تذوق الفن الغربي هم مجرد أدعياء ، لماذا ؟ لأن في رأيه أن الفن هو مثل اللغة التي تفكر بها أو تنطق بها ، ولا تستطيع أن تستمتع بغيرها ، فإذا كنا نتعلم الإنجليزية أو الفرنسية ونتحدث بهما مثلاً ، إلا أننا لا نستمتع بهما أو بأي لغة بنفس

(*) أستاذة علم الجمال ، وعميدة كلية البنات بجامعة عين شمس سابقًا .

القدر الذي نستمتع بلغتنا ، ولعل هذا يشير بذكاء إلي رأي مهم مفاده أن عملية الفهم تضعف عملية التذوق ، لأن الترجمة وسيط غير مضمون .

ومن ثم لا نستمتع إلا بالفن الخاص بنا وتراثنا ، أما الفن الغربي فإننا نقوم بفهمه ثم تذوقه ، ولقد شرح ذلك في تجربته في "تعالي معي إلي الكونسير" ، أما في هذا الكتاب فقد تحول أديبنا الكبير إلي عالم أنثروبولوجي يتحدث عن طبيعة الفن لدى الأجناس المختلفة ، ولقد فعل ذلك بتلقائية لأنه يعيش في القلب من تاريخ مصر وعاداتها ويحيا تقاليد الحارة المصرية ، ولذا اكتشف عبقرية اللغة العامية واستخدمها في أحاديثه وكتاباته ، فكان يتحدث العامية ويكتب بها على نحو راق ويقحم الأمثلة الشعبية على نحو مدهش .

وهذا الموقف الثقافي من الفن للأستاذ يحي حقي ، انعكس على رأيه في الاستطيقا (أو علم الجمال) ، ففي مقالة جيدة عن فن الموسيقي بعنوان :

" الفنون كلها لا الموسيقي وحدها " حيث بدأ بكلمة وقعها صعب جداً على الأذن وهي "هتك الستر" وإنه مرتبط بسوء الأدب ولكنه يصبح محموداً لأن هذا " الهتك للستر " الذي يستخدمه يكشف عن فضيلة وليس شيئاً سلبياً ، وهنا يعني بأن النقد الصادق فضيلة وعمل جاد ، وكان هذا الكشف يخص الأستاذ " فؤاد كامل " ومدى جهده العظيم في البرنامج الثاني وترجماته في الأدب والفلسفة ، وتوقف الأستاذ يحي حقي عند كتاب ترجمه مؤخراً الأستاذ فؤاد كامل وهو " جماليات الإبداع الموسيقي " للمؤلفة جيزيل بروليه ، وأشار في البداية إلي صعوبة الترجمة من الفرنسية ، وأثنى على الأستاذ كامل صبره وجلده في أن يترجم هذا الكتاب بهذا الأسلوب الواضح وتحديد المصطلحات الموسيقية الصعبة الواردة في الكتاب .

ولقد اعترف أستاذنا الأديب بالفائدة الجمة التي استفادها من هذا الكتاب فهو يقول : "لقد ازددت إدراكا بفضله لمعني الشعر الحديث" ، أي ازداد إدراكاً لدور النقد بالقياس إلي العمل الفني المبتكر ، وبذلك بدأ بالاشتباك مع الاستطيقا أو علم الجمال . هذا الاشتباك الذي أسعدني شخصياً لأنه كشف عن وجه جديد بالنسبة لي للأستاذ

الأديب وهو كونه فيلسوف جمال يدلي برأيه ، فهو يلمس شيئاً مهماً جداً وهو خطأ أن نطبق المبادئ العامة للاستطيقا على تجربة الفنان ، هو الذي يبدع من خلال تجربة خاصة صادقة يعانيها من خلال حدسه الخاص، ثم يضع سؤالاً مهماً : هل تستطيع الاستطيقا أن تضع قبلياً مثلاً أعلي يقاس عليه الفن ، أليس ذلك دوجماطيقا تناقض التطور التاريخي للفن ؟

ويبدو لي إنه بذلك يقدم نقدا للنقد بمعني أنه نقد للاستطيقا (أو علم الجمال) التي تدعي إنها تضع معياراً أولياً نقيم به الفن ، وبالتالي يرفض الأستاذ يحي حقي ذلك متسقاً مع أرائه الثقافية وعلى رأسها " حبه وتقديره للمحلية " ، أقول إنه يرفض الاستطيقا بالطريقة الغربية ، بمعني أنه يرفض قولبة الذوق ، لأنه – كما قلت – له رسالة تربية ، هو يريد أن يتعلم الناس بأنفسهم ، لا من خلال إطارات ذهنية أجنبية متحذلقة ، هو لا يريد أن يستخدم أدوات الخواجات كشئ مستعار ، شأنه شأن وضع برنيطة على رؤوسنا وفي داخل رؤوسنا شيئاً أخر.

ومن هنا يدعو أديبنا إلي أن الفن لا ينفصل عن تاريخ وبيئة الإنسان حيث يبدع الفنان من خلال حدسه الذي تربي في هذه البيئة ، ثم يؤسس جمالاً يتم تذوقه ثم نقده ثم وضع نظرية جمالية لهذا النوع من الفن الذي تأسس في هذه البيئة ، وإذا تغيرت البيئة ، سيبدع فنان أو فنانون آخرون بحدوس مختلفة ويؤسسون جمالاً يتم تذوقه ثم نقده ثم تأسيس نظرية جمالية .. إلخ حسب بيئاتهم، وبذلك هو يثير " قضية مهمة جداً " ، جعلته في نظري يرهص بفلسفة جمالية ترتبط بنا ، حيث ينادي بضرورة أن نفهم هذه النظريات الجمالية التي تأتينا من الغرب وأن نعى الكيفية التي بها تتحرك وتتغير وتتطور، ومن ثم يكون في مقدورنا أن نقوم بالتشكل الإبداعي ونتجنب التشكل الكاذب الذي نحاكي به الغرب كالقرود ، ولعلنا انتبهنا لهذا ، كما أن لدينا الآن نظريات جمالية تخصنا ، لا مجرد تطبيقات نقدية للنظريات الغربية .

إذا انتقلنا إلي فن التصوير سنجد نفس الموقف ، ففي مقالة : " لوحة تكاد تنطق" ، يصف زيارته لتهنئة عروسين جديدين ، وبعد وصف منه للعروسين وشقتهم، يقف عند لوحة زيتية كبيرة معلقة تحتوى على منظر طبيعي فيه أشجار ومياه وسحاب

يغيم على السماء، ثم يصف اللوحة قائلاً : إنها ليست ساذجة ، بل ذميمة إلي حد البشاعة ، إلي حد أنها تجعلك تقفز من جلستك، نصابة لا تصيد إلا البسطاء من الناس الطيبين . (لاحظ أن ذم فعل أخلاقي بمعني العيب والشح والضيق ، ونصابة كلمه عامية مدهشة).

ثم يبدأ في المناقشة والتساؤلات التي تبين عن كونه فيلسوف جمال ، بدأ من ملاحظته تصميم العروسين على أن تكون شقتهما (مودرن) فأدي بهما ذلك التصميم إلي تعليق هذه اللوحة ، ثم يكشف لنا عن مدي افتقار العروس للوعي الجمالي ، حيث تعلن بافتخار حين رأت بصره معلقاً باللوحة : "ألا ترى أنها تكاد تنطق ؟ لقد اشتريناها من مزاد" هنا فاض الكيل داخله ، ولكنه كان رجلاً مهذباً، جم الأدب ، فقد عبر عن غله في رأيه عن اللوحة بدلاً أن يدفعه في وجه الفتاة ، فقال لنفسه : لا أدري من الذي رسمها . لابد أنه تاجر خسيس (لاحظ الحكم الأخلاقي) يصنعها هو أيضاً في معمل للخمور المغشوشة ، يقصد بذلك أنه يقوم بتخدير المغشوش أي المتلقي ، هكذا أوضح أن التشكل الكاذب الذي يتحلي به الوعي المفتقر إلي التذوق الفني الأصيل يدفع وعينا الزائف ، إذا أردنا أن نكون (مودرن) يستلزم ذلك أن نفعل كذا وكذا وكذا ، أي بعض المبادئ القبلية المحفوظة التي تخفي الذات الحقيقية من أن تظهر وتمارس حرية التذوق وبذلك تتعطل قدرتها على الإبداع .

وهنا تساءل مندهشاً : كيف أن شباباً متعلما مثلهما ، فالفتى لديه ذكاء غير منكور ، وللفتاة خبرة – على الأقل – بألوان الثياب ، فكيف لا ينتبهان إلي دمامة الصورة ، بل العجيب إنهما يريان فيها جمالاً ساحراً يعتزان بحيازته ، وردد في نفسه : أحاول أن أعرف السبب ؟!!

وفي الإجابة كشف لنا عن افتقارهما إلي الخبرة الجمالية في فن التصوير الصعب ، ولقد أصابتني الدهشة لهذا الرأي من الأستاذ يحي حقى لأن المصريين هم المصورون الأوائل في العالم ، هل لأنه مهذب جداً ؟!

على أية حال إنه أرجع افتقار العروسين للذوق الجمالي إلي الأسرة والدراسة، وطالب – ساخراً – وزارة الثقافة بتأميم تجارة اللوحات حتى يمنع هذا الغش في الذوق الجمالي وأعتقد أنها سخرية في محلها ، فقد حدث الغش الآن لا في فن التصوير فحسب بل في معظم الفنون ، حتى وصلنا إلي ما وصلنا إليه الآن من قتل للجمال وإحياء لكل ما هو قبيح ورخيص.

ولذلك نبه الأستاذ الأديب إلي أهمية ارتباط الفن بصاحبه أو متلقيه ويعني بذلك أن ينتج هذا الفن من بيئته الخاصة حتى يتربي عليه وعي المصري ، إذ لو تم ذلك كان من الممكن أن يهدى العريس لعروسه شمعداناً من فضة ، أو منقد فحم من النحاس أو شكمجية من خشب الصندل ، أو كليماً من الصوف أو حتى قبقاب حمام مطعم بالصدف ، كلها من شغل يد فنان شعبي ورثه عن أب وجد .. تأمل معي أيها القارئ العزيز مدى أرتباطه بالأرض المصرية وما ينبع منها من أفكار وأسرار وفن، لو قمنا بتربية ذلك لكان قد نما وازدهر . وهذه دعوة لتأسيس بيئة الإبداع الأولي على أرضنا ، ثم التذوق وممارسة النقد ثم الوصول إلي النظرية الجمالية .

وأخيراً رد على بعض الآراء المتوقعة المعارضة لهذا مثل : ما الذي تقوله يا أستاذ يحي ، ألا ترى مولد آلاف الآلاف من الأفواه تصرخ تطلب الخبز ، ثم يزيد آلاف الآلاف من الشقق ليس لدينا الوقت ولا المال ولا الدماغ للتفكير في تجميلها ، فلتهدم كل زينة إذا كانت نفقتها تكفي لبناء شقة جديدة .

وتوقفت طويلاً أمام " لتهدم كل زينة " كأني اقرأ المسكوت عنه وهو القول : فليذهب الجمال إلي الجحيم ، ويحيا القبح إذا كان نافعاً . تأملوا معي مرة أخرى مدى صدق نبوءة أديبنا ، كيف نعيش الآن في عصر القبح النافع . على أية حال أجاب الأستاذ الأديب على هذه الأقوال والآراء إجابة بليغة قائلاً : إنني أسلم بكل هذا وأن الحاجات الضرورية هي غول يلتهم كرامة الإنسان ، إلا أن المادة لا يمكن أن تغطي على " الروح والعواطف والذوق " ، إذ سيمتلك الفرد دائماً حريته في رفع مستواها مهما ضاقت المساحة التي يتحرك فيها ولكنه في حاجة إلي فنانين مبدعين ووسائل

إعلام صادقة تدرك هذه المشاكل كلها ، فلا تغرق المتلقي في حكم ومواعظ غير قابلة للتطبيق أو تغرقه في النظريات والجدل بين المدارس المختلفة .

وهنا أيضاً أقرأ المسكوت عنه " Unvoiced " إنها دعوة للمثقفين أن يكونوا صادقين وينزلوا من أبراجهم العاجية التي يعيشون فيها حيث يقفون أمام مرآة أنفسهم في الندوات والمؤتمرات يضخمونها بالجدل البيزنطي ، أقول : ينزلون ليتحدثون بلغة الناس ، لغة الوجدان حتى يتم التواصل والتفاهم ثم الترقي الحقيقي ، لأن الأستاذ الأديب كان يعي أهمية الفن والتعبير الفني ، إنه بمثابة القلب في الأمة إذا سكت عن الإبداع صمتت الأمة إلي الأبد ، ومع الصمت وعدم الفاعلية تصبح الأمة متلقية منفعلة بكل زائف .

ولعل نصيحة ارسطو للاسكندر وهو في بداية حملته من أجل بناء الإمبراطورية الرومانية ، إذ نصحه بأن يبحث عن المغني أولاً عند دخوله أي بلد ، لأن المغني أو الشاعر أو الفنان (جميعهم بمعني واحد) هو ضمير الأمة التي يميتها إن كذب وغش ويحييها إن أبدع عن صدق.

أما مقالته عن النحت فلن أقف عند ترجمته لمقالة فرويد عن " تمثال موسى " لمايكل أنجلو ، وإنما سأقول بإيجاز إنه يتسق مع رؤيته العامة في أننا نفهم الفن الغربي كل بدرجته وخبرته ولكن لا نتذوقه بالإحساس الذي نتذوق به فننا ، ولذلك قدم المقالة بكل ما فيها من أراء تظهرنا على اختلاف أراء النقاد الغربيين أنفسهم حول ما قيل قبل فرويد ثم قدم رأي فرويد نفسه فيما يسمي بالدلالة الرئيسية للتمثال ، أو بمعني آخر قدرة الفنان على التعبير عن عمله ، فكلما استطاع امتلاك عناصر العمل كلما استطعنا أن ندرك المعني .

ولقد أثار التمثال جدلا وتناقضا كبيرين في الآراء بين النقاد. حول قضية بسيطة تم تعقيدها في الجدل الدائر حولها ، فالتمثال ببساطة يقدم لنا النبي موسى بعد أن صنع اليهود صنمهم ممسكاً بألواح الوصايا العشر . إلا أن الجدل دار حول ما إذا كانت جلسة موسى وهو يعبث بأحد أصابع يديه في لحيته والأخرى تمسك الألواح

وقدماه : قدم تتقدم الأخرى ، هل هي بداية الانفعال أم هي بداية حركة قيامه وتكسير الألواح والانتقام من اليهود والمارقين ، وهذا الرأي يترجم كل تكوينات اليد وحركة القدم وانفعالات الوجه إلي بداية حركة القيام للانتقام ، وكان هذا رأي كل من جريم ، واسبرنجر ، وجاكوب بوكارت ، وتود.

أما بالنسبة للوبكه ، وهيث ويلسون ، وجوستي .. الخ فقد فسروا " اللحظة " التي صورها الفنان في التمثال هي بقايا متخلفة من انفعال قد انطفأ ، حيث أن منظر اليهود وهم يرقصون فجر في داخله غضباً أغراه أن يهم واقفاً ويندفع منتقماً غير ملق باله إلي الألواح التي يحملها ، ولكنه نجح في صد هذا الإغراء وبقي جالساً هكذا كما هو أمامنا ، وقد سيطر على ثورة غضبه المحتدم ، وهذا هو رأي فرويد وشخص أخر أسمه " واتكنس لويد " الذي كتب كتاباً من ٤٦ صفحة عام ١٨٦٣ ، وجده فرويد يدور حول تفسير اللحظة عكس النقاد الآخرون بما يتفق معه إنها لحظة انكسار العاصفة لا بدايتها.

وانتهي تحليل فرويد بتساؤلات هل رأيه مع لويد هو من نفس طبيعة آراء الذين استعرضهم ، ولقد زعم هل رأي شيئاً بوضوح لم يقصده الفنان عن عمد أو غير عمد ؟ إذ رأي أن مايكل أنجلو فنان يعبر فنه عن أفكار تتصارع وتريد أن تجد منطلقاً ، وإنه هو نفسه "فرويد" يقاسم النقاد الآخرين تحمل مسئولية نسبة التردد في الاختيار ما بين كون " اللحظة " وهي الحركة التي أوقف عليها التمثال : هل هي حركة قيام أم حركة سكون .

ولم يقدم أستاذنا الأديب رأيه الخاص من خلال تعليق ما ، وأعتقد – على ما أظن – أنه بصمته عن التعليق يحملنا مسئوليتنا تجاه المقالة بمفردنا دون وصاية منه، بمعني إعطاء الحرية للمتلقيين كل على قدر فهمه ، وبهذا " الفطم العاطفي " الذي تعمده أديبنا ، يحاول أن يؤكد ما يؤمن به أن الفن الغربي للفهم فحسب وليس للتذوق ، أي تجربة تأويل لا محدود ، وأن علينا أن نتمرس على ذلك من خلال فاعلية الفهم ، والتي بها نبدع ذاتنا ونمارس هذه الفاعلية على تمثال لدينا بنظرية نابعة من ثقافتنا .

لو انتقلنا إلي العمارة : ولا سيما مقاله " النفع .. الجمال ... الطابع المحلي " نجد أن أهم شئ هو محاولته تأصيل إقليمية الفن ، لأنه – في نظره – عبارة عن التفاعل القوى بين كيان المرء بتاريخه وتراثه أي ما ترسب له من ماض وحاضر ومستقبل يبدع به الفن . فنجده يربط العمارة " بالحضارة " في أبعادها السياسية والاجتماعية والاقتصادية أي في النظام الرأسمالي والاشتراكي والإقطاعي ، ثم بعد هذا الاستعراض وقف عند العمارة المصرية التي نجت في نظره من الاستغلال والفخفخة الكاذبة ، وعدد ما ورثته القاهرة العزيزة – كما يقول – من القرون الوسطي من مساكن الطبقات الشعبية وهما نوعان من العمارة :

الحوش : مثل حوش أيوب بك وحوش بردق الذي كان يضرب به المثل لكل من نالت الدكتوراه في (الروح والتشليق) ، وهي عبارة عن ساحة مكشوفة يدور حولها على شكل مربع حجرات صغيرة أرضية مستقلة تحتل كل أسرة واحدة منها ، والمرحاض شركة ، النوع الثاني هو " الربع " مثل ربع المغربلين والربع صف من الدكاكين يعلوه صف من الحجرات تفتح على ممر واحد ممتد أمامها .

ثم استعرض بيوت الأغنياء مثل بيت السحيمي ، بيت السناوى ، وأوضح رأيه في هذا النوع من البيوت ، إنها نوع من السكن الجميل والنافع المريح غير الكاذب في انتمائه لبلده وجوه وعادات أهله . وضرب مثل أيضاً بفنادق زمان : الخانات والوكالات مثل وكالة الغورى وما تتميز به من جمال واطمئنان ورسوخ وخفة دم ، الأصالة والرشاقة في آن واحد كما يقول .

وفي مقالته : " فأر تحت سطح من صفيح ساخن " يستعرض ثلاث طرز رئيسية في العمارة : الطراز الفرعوني الذي روج له مختار في تمثال نهضة مصر ، والطراز العربي الذي تزعمته وزارة الأوقاف والمعماري فرج ميخائيل الذي بني معهد الموسيقي الشرقية على الطراز العربي . ثم الطراز الموريسكي المنحدر إلينا من الأندلس والذي بنيت به العمارات السكنية في مصر الجديدة وأيضاً في جامع المعادي .

ثم هجم تيار رابع يسميه تيار المسلح الذي لا يهدف إلا للنفع ، ومنذ هجوم هذا التيار عمت العمارة " الفوضى " وبنيت الأحياء الجديدة على أقبح صورة ، وضرب أمثلة لهذه الأحياء القبيحة حيث يغمض عينيه حين يمر بها مثل شارع الأزهر ، أرض شريف ، شارع مصر والسودان ، شارع المنيل . حيث يشعر كأنه يمر برصيف محطة كوم عليه مسافرون خائفون متعجلون ، أمتعتهم حقيبة وكيس وزنبيل وقفة بعضها جنب بعض أو فوق بعض – صورة قبيحة جداً – تفتقر إلي الشعور بالسكن والاطمئنان والراحة ، كما لا تقي من الحر أو البرد ، والويل لمن يسكن في الأدوار العليا من أمثالي ، إنه بطل في مسرحية تنيس وليامز ليكون أسمها " فأر تحت سطح من صفيح ساخن " .

وبعد هذا العرض نجده يلفت الانتباه إلي عمارة كوربوزيه في فرنسا ، ولويد رايت في أمريكا حيث النفع والجمال ، وأسف لعدم وجود مهندس واحد يحاول أن يتصدى لتيار القبح الجارف ، باستثناء حسن فتحي المعماري العظيم الذي بح صوته في الدعوة إلي عمارة ملائمة لمناخنا وأرضنا وذوقنا وأشاد بتحفته الرائعة في قرية " القرنة " ، والجامع الذي بناه يمتزج فيه الخشوع بالأناقة والوداعة ، والفيلا التي بناها في شارع ابن سينا أمام حدائق الحيوان ، وكيف إذا تأملتها ستحس براحة كبيرة ومتعة نفسية عميقة أي بالجمال والنفع.

وأخيراً دعا أستاذنا الأديب المهندسين بأن يدافعوا عن أنفسهم إذا كان قد تجنى عليهم، واقترح أن يتبنوا أسلوبًا معماريًا يتميز بالجمال والنفع وأوصى بأهمية إصدار مجلة "العمارة" فكيف يدعى بلد أنه مهتم بحركة البناء ويخلو من النظريات المعمارية الخاصة به والتي تؤسس لنا النفع والجمال، .

أستطيع أن ألخص مبادئ الجمال التي ارساها لنا فيلسوف الفن أ. يحيٍ حقى وهي:

١- لا يفهم فن إلا بمبدعه في إطار مبدعه .

٢- لا يتذوق إنسان إلا من خلال أدوات يمتلكها أصلاً حيث يمتلك بنية جمالية لا تتبنى إلا داخل بيئتها.

٣- لا يمكن أن نفرض على الذوق ما يأتيه من خارج إقليمه .

وبذلك يرفض الأستاذ الأديب استطيقا عامة كما لا يرضي بمبادئ قبلية تفرض على التجربة الجمالية ، وهو بذلك الرأي – في اعتقادي – يحاول أن يصوغ الإنسان المصري ، عن طريق تأصيل الذوق الخاص به ، وتمييزه له بين المستوى المعرفي أو الابستمولوجي الذي نفهم من خلاله فن الآخرين ، والمستوى السيكولوجي والوجودي الذي أتذوق من خلاله فني النابع من وجداني والمغروس في بيئتي .

وأعتقد أن دعوة صياغة الإنسان المصري من خلال الذوق قام بها كثير من الأدباء والمفكرين والفنانين ، إلا أن أستاذنا الأديب يحي حقي يتميز عن هذه الدعاوى بأنه رجل صادق وصريح ، لا يدعي مثلاً كغيره أن تكوينه غربي ولكنه يتحدث العربية، وإنما حاول دائماً أن يكون في القلب من مصر ، وبنى معادلة وجوده كله على أن يكون جزءًا من التاريخ المصري والوعي المصري والذوق المصري .

وأخيراً لو تأملنا في العنوان : محراب الفن ، ماذا يقصد به ، وبعد أن قرأته وانتهيت من مقالاته ، وقفت على باب المحراب متسائلة : ماذا كنت تقصد به أستاذنا الأديب ؟ لقد شعرت أنك تصوغ الإنسان المصري من كل جوانبه ، وبسهولة ويسر نقلتني مقالاتك من الفن إلي الناس جميعاً ، من مفهوم الفن إلي المفهوم السياسي والاجتماعي والاقتصادي ، أي إلي الوطن كله كوحدة متناغمة من خلال الإبداع الخلاق .

* *

مصطلح التنوير بين الإسلام والعلم

د. أرزاق فتحي أبو طه(*)

مقدمــة

يعد مصطلح التنوير من المصطلحات التي دخلت المجتمــع الإســلامي دون تحديد للمفهوم المقصود منه ومن ثم فقد ارتبط مفهوم هذا المــصطلح عنــد الــبعض بالعديد من السلبيات واعتبر دعوة إلى الانحلال الأخلاقي والتخلي عن الدين الإسلامي حيث ارتبط "عندهم" بالتقدم والرقى والدعوة إلى الحضارة والتمدن في إطار لا يتم إلا بالانسلاخ من الدين والتقليد التام للغرب في كافة المجالات دون تردد.

والحقيقة أن مفهوم التنوير وإن ارتبط معناه عنــدهم بالــدعوة إلـــى التقـــدم واستخدام العقل والعلم وذلك لا يتم من وجهة نظرهم إلا "بالبعد عن الدين" فقــد كـــان هذا لظروف معينة كما قلت نشأت خارج المجتمع الإسلامي، أما في الإســـلام فـــإن مفهوم التنوير وإن كان يحث على استخدام العقل والعلم فهذا يتلاءم مع موقف الإسلام من العلم فقد دعا الإسلام إلى العلم وحث على استخدام العقل.ومن ثم أردت في هـــذا البحث أن أبين الظروف التي دعت إلى ظهور التنوير في الغرب وكيفية انتقال هـــذا المصطلح إلى المجتمع الإسلامي، وكيف تبناه البعض وعمل على تطبيقه في المجتمع الإسلامي كما هو دون مراعاة الفروق بين المجتمعين(الغربي والإسلامي) ، ولما كان التنوير في الغرب يدعو إلى فصل الدين عن العلم والفكر ، لأن الدين عندهم المتمثـــل في رجال الكنيسة المتسلطين كان يقف موقف المعارضة من العلم والعلماء ويـــرفض أي تفكير علمي يقوم على الملاحظة والتجربة واستخدام العقل . ولذلك فقد كان مـــن الضروري إلقاء نظرة على الكتاب المقدس الذي كان تفسيره قاصـــرًا علـــى رجـــال الكنيسة وحدهم لمعرفة موقفه من القضايا العلمية، وهل كان مؤيدًا لهـــا أم معارضًـــا ليتضح مدى إنصاف دعاة التنوير في أوروبا من دعوى فصل الدين المـــسيحي عـــن

(*) مدرسة العقيدة والفلسفة بكلية الدراسات الإسلامية والعربية – بنات جامعة الأزهر .

العلم والفكر ، وبالمثل يجب أن أقوم بنفس الشيء مع القرآن الكريم لنقف على موقفه من القضايا العلمية وهل كان معارضًا لها أم مؤيدًا ومن ثم معرفة إذا كان يستحق من بعض دعاة التنوير عندنا في المجتمع الإسلامي الدعوى لفصل الدين عن العلم والفكر اقتداءا بالغرب وقد قادني ذلك إلى عقد مقارنة موجزة بين الكتاب المقدس والقرآن الكريم في إحدى القضايا العلمية ليتضح أيهما كان معارضًا لما كشفه العلم الحديث وأيهما كان مؤيدًا ثم أكدت كلامي في إثبات عدم تعارض الإسلام مع العلم والفكر الحديث عن إحدى القضايا العلمية المهمة (الجينوم الوراثي) التي أشار إليها القرآن الكريم واتفقت مع معطيات العلم الحديث بعد نزول القرآن بقرون عديدة وبينت من خلال حديثي عن هذه القضية موقف المفكرين المسلمين قديما وحديثا من الأخذ من الثقافات الأخرى وتأثرهم بنظريات لمفكرين غير مسلمين وأخذهم منها ما يخدم دينهم الإسلامي الحنيف بدقة وحذر حتى لا يجرفهم التيار الغربي ويقعوا في ما لا تحمد عقباه وكان هذا بمثابة الرد على دعوى البعض من دعاة التنوير بالأخذ من الحضارة الغربية بكل ما فيها بدعوى التحضر والرقي ، وختمت بحثي بذكر أهم النتائج التي توصلت إليها من ذلك البحث.

وبهذا فقد اشتمل البحث على العناصر التالية :

مقدمة .

١- تعريف التنوير لغة واصطلاحا.

٢ - مصطلح التنوير في الغرب وظروف نشأته.

٣- كيفية انتقال مصطلح التنوير إلى العالم الإسلامي .

٤- مفهوم مصطلح التنوير في الإسلام .

٥ - الدعائم التي ارتكز عليها التنوير :

أ - موقف الإسلام من العقل.

ب- موقف الإسلام من العلم.

لكي نقف على حقيقة هذا المصطلح لا بد من تعريفه أولا: ثم التعرف على البيئة التي نشأ فيها والوقوف على الظروف التي أحاطت به.

التنوير في اللغة:

جاء في لسان العرب:إن التنوير هو وقت إسفار الصبح،يقال قد نور الصبح تنويرا.وفى المعجم الوسيط:استنار أضاء ونور الله قلبه وهداه. وجاء في معجم ألفاظ القرآن الكريم:النور:المعارف والدلائل التي تجلو الفلك وتجلب اليقين في العقائد،فليس النور أوهاما وتخيلات ولكنه حقائق ودلائل مقطوع بصحتها[1].

التنوير في الاصطلاح:

يختلف مفهوم مصطلح التنوير طبقا لظروف نشأته والمجتمع الذي وجد فيه ولهذا فلابد من الوقوف على معناه في كل من الغرب والشرق والظروف التي أحاطت به فيهما.

مصطلح التنوير في الغرب وظروف نشأته:

نشأ هذا المصطلح في الغرب في ظروف تاريخية عاشتها دول أوروبا شرقا وغربا،فقد كانت ثقافة الشعوب في أوروبا خلالها قاصرة على ما تمليه عليهم سدنة الكنيسة ورجالها،فقد كانت السيطرة الثقافية واللاهوتية وتفسير الظواهر الطبيعية خاضعة لرجال اللاهوت الكنسي ، باعتبارها وحيًا لا تجوز مخالفته.

ومن المعروف تاريخيا أن موقف الكنيسة وآراء رجالها كانت في العصور الوسطى تمثل الجهل والتخلف والخرافة،فقد طلبوا من المسيحيين الإيمان والإذعان لأرائهم في تفسير الظواهر الكونية مدعيين أن الدين "الكنيسة" يختص بتفسير هذه الظواهر،وأن الخروج عليها كفر وإلحاد ويكون جزاؤه الطرد من رحمة الكنيسة[2].

ولهذا فقد ظل الصراع في أوروبا في العصور الوسطى محتدما بين المفكرين واللاهوتيين أي بين العلم والدين ذلك لأن النصرانية تركزت تعاليمها ووصاياها على خلاص الروح : وهى " ثوابت " ليس فيها المرونة التي تقتضيها " شريعة العمران المتطور دائمًا".. فلقد " ثبَّت " الحكم البابوي الكنسي " المتغيرات الدنيوية " ، بل

---

(١) لسان العرب:ابن منظور مادة نور، المعجم الوسيط – ج٢ ص ٩٦٢، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم ج٦ ص١٧٣.

(٢) د/محمد السيد الجليند– التنوير بين المشروع الإسلامي والمشروع التغريبي ص ١٢ - ١٣.

وأضفى عليها " قدسية " الدين ، الأمر الذي أوقف التطور والتقدم والفلسفة ، فدخل الحكم البابوي الكهنوتي بالحضارة الأوروبية إلى ظلمات عصورها الوسطى !.. في ضوء هذا السياق ، جاء التنوير الأوروبي : فلسفة رافضة لتجاوز الكنيسة حدودها التي رسمها الإنجيل – خلاص الروح ومملكة السماء – .. ومدافعة عن " النزعة الدنيوية " – "العلمانية" – للفلسفة الأوروبية .. وداعية إلى " العقل" الذي استبعدته الكنيسة ، و " الرأي" الذي قهره اللاهوت ، ومناديه بالتحرر من " سلطة التقاليد" الكنسية التي كانت " سوقًا تجارية " راجت فيه مفاسد القساوسة والباباوات !.. ففي مواجهة " الفعل " – الذي تمثل في تحالف الكنيسة والإقطاع – كان " رد الفعل " التنويري الذي أعلن رفضه لسلطان الدين على الدنيا ، ولتدخل السماء في العمران الأرضي ، رافعًا شعاره القائل : " لا سلطان على العقل إلا للعقل " وإذا كانت جذور التنوير – بهذا المعنى الأوروبي – يمكن أن تعود إلى " فرانسيس بيكون " في القرن الثامن عشر الميلادي الذي رفض تدخل الدين في المعرفة ، لأن الدين يحد من كل ألوان المعرفة وكان ذلك واقعًا أوروبيا خاصًا يومئذ فإن هذه الجذور التنويرية الأوروبية قد تميزت ، منذ بزوغ فجرها بتعليق الآمال على " العقل والعلم والفلسفة "، جاعلة منها بديلا عن الدين والتدين .. بل وبديلا عن " الله " ومتخذة منها " آلهة للتنوير " !.. فالعقل والعلم والفلسفة كانت مطرودة من المجتمع الأوروبي الذي حكمته البابوية باللاهوت .. ومن هنا كان استدعاء التنوير لها كبدائل عن دين الكهانة واللاهوت .. أما القرن الثامن عشر الميلادي ، فهو الذي شهد صعود موجة التنوير ، وتوالى أعلام هذه الفلسفة .. مثل " فولتير " من[١٧٣٤ – ١٧٧٨م] و "رسو" [١٧١٢ – ١٧٧٨م] ، و " مونتسيكيو " [١٦٨٩ – ١٧٥٥م] ، " وهيردر " [و " ليسينج " [١٧٢٩ – ١٧٨١م] ، " و " شيلر " [١٧٥٩ – ١٨٠٥م] ، و " جوته " [١٧٤٩ – ١٨٣٢ م] ، و " كانت " [١٧٢٤ – ١٨٠٤ م] .. إلخ .. حتى لقد سمى هذا القرن الثامن عشر بعصر التنوير وإذا كان القرن الثامن عشر هو عصر التنوير الأوروبي ، فلقد كان " فولتير " أبرز فلاسفة ومفكري هذا التنوير .. فلقد دعا .. إلى تمجيد العقل ، بديلاً عن قداسة الدين وشن حملة شعواء ضد الدين والكنيسة ، وأنكر

عالم الغيب ، والبعث ، والجزاء الأخروي . وقال إن النفس ليست إلا حياة الجسم ، وأنها تفنى بفنائه .. وليس هناك وحى مقدس سوى الطبيعة نفسها .. وكتب كثيرًا في نقد الدين ، الذي اتخذه رجال الكنيسة وسيلة لإرباك أذهان الناس ، واستخدمه الملوك لسلب أموالهم .. وجعل مقاييس الفضيلة في مدى ما تحققه من الخير الإجتماعى ، قاطعًا العلاقة بينهما وبين طاعة الله أو الثواب والعقاب بعد الموت .. ولقد انتشر فكر التنوير ، بهذا المعنى – تمجيد العقل وحده ، بل وعبادته ، في انجلترا وفرنسا ، ناشرًا معه الكفر والإلحاد والنزعة المادية في الفلسفة – فقال " هوبز " [١٥٨٨ – ١٦٧٩ م] : " ليس في الوجود إلا ذرات في الفضاء " .. وبلغ هذا المعنى للتنوير ذروته إبان الثروة الفرنسية – [١٧٨٩ م] عندما اتخذ الباريسيون معبودة حسناء أطلقوا عليها : " إلهة العقل " ! .. تلك هي أبرز معالم فلسفة التنوير الأوروبي .. وهكذا نشأ كرد فعل على الكهانة البابوية التي تجاوزت حدود الإنجيل والنصرانية فتحكمت في الدولة والدنيا وقدستها ثم غرقت في الفساد والاستبداد ، واضطهدت لا المخالفين في الدين والملاحدة فقط ، بل والمخالفين في المذهب أيضا ، حتى كانت عقوبة إقامة قداس بروتستانتي ، في مجتمع كاثوليكي : سجن النساء مدى الحياة ، وإرسال الرجال للتجديف حتى الموت ، وإعدام الكهنة !.. وكانت المواكب تسير في ذكرى المذابح الدينية " شكرًا لله " !.. ناهيك عن الذي حدث للعلم والعلماء على أيدي الكهانة الكنسية في تلك العصور (١) .

وقد تمخض عن هذا الصراع انتصار الفكر وتقلص السلطة الكنسية واستقلال العلم عن الدين.وقد أدى ذلك إلى انطلاقة فكرية في القرنين السابع عشر والثامن عشر،وقد قاد هذه الانطلاقة العديد من المفكرين التنويريين وبخاصة "جون لوك"و"دايفيد هنيوم"و"نيوتن"في انجلترا و"فولتير"و"الموسوعيون"في فرنسا،و"ليبنتز"و"كانت" في ألمانيا كما ذكرت وأصبح مفهوم التنوير يمثل حركة عقلية أوروبية رأت في العقل الوجود الحقيقي للإنسان،وسعت إلى تحرير الحضارة من الوصايا الكنسية والنزعات الغيبية ،والخرافات،ودعت إلى التسامح،وآمنت بتقدم

(١) د / محمد عمارة : الإسلام بين التنوير والتزوير ، ص ٢١-٢٤ بتصرف.

الإنسانية عن طريق تشكيل الحياة على أسس طبيعية وعقلية عن طريق البحث العلمي(١).

مما تقدم فقد تبين أن مصطلح التنوير ظهر في أوروبا إبان العصور الوسطى ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو كيف انتقل هذا المصطلح إلى المجتمع الإسلامي؟ هذا ما سيجاب عنه في السطور التالية.

كيفية انتقال مصطلح التنوير إلى المجتمع الإسلامي:

انتقل مصطلح التنوير إلى المجتمع الإسلامي كما هو دون توضيح أن هذا المصطلح نشأ في بيئة مختلفة عن البيئة الإسلامية فقد نشأ في أوروبا إبان العصور الوسطى طبقا لظروف معينة دعت إلى وجوده فأنتقل دون تفرقة بين تلك الظروف والظروف التي توجد في المجتمع الإسلامي فإن هذا المصطلح وإن صادف في انتقاله إلى العالم الإسلامي قدر كبير من التأخر للمسلمين وتخلفهم عن ركب الحضارة العلمية إلا أن هذا لا يعنى أن الإسلام الذي ينتمي إليه المسلمين يتصف بتلك الصفات فالإسلام على النقيض من ذلك تماما فالإسلام ليس هو الدين المسيحي الذي يوجد الآن وليس رجال الدين الإسلامي يقفون نفس موقف رجال الكنيسة ضد العلم والفكر.

والذي أستطيع قوله هو أن أعداء الدين الإسلامي اتخذوا من التنوير سلاحا لمحاربة الإسلام وتصور هؤلاء أن مفهوم هذا المصطلح ما هو إلا صراع بين الإسلام والعلم والعقل ، وأصبحت الثنائية التناقضية بين الدين والعلم عنوانا لحركة التنوير وملازمة لها في بلادنا ،فكما رفض العلماء في أوروبا الكنيسة وأعلنوا الحرب عليها دليلا على التنوير أخذ دعاة التنوير عندنا بنفس المبدأ ،فأعلنوا الحرب على الإسلام ورجاله،لكي يعلنوا عن أنفسهم أنهم تنويريون ودعاة التنوير،وكما أعلن العلماء في الغرب أن الدين(الكنيسة)خرافة ورجاله رموز للجهل،أخذ دعاة التنوير في بلادنا يلصقون نفس التهم بالإسلام ورجاله.

---

(١) د/محمود حمدي زقزوق – بحث نشر في المؤتمر الثالث عشر،تحت عنوان :التجديد في الفكر الإسلامي، مايو ٢٠٠١م– ص ١.

وبهذا انتقل مصطلح التنوير بكل الملابسات التي ارتبطت به في الغرب إلى الشرق العربي وأصبحت تلك الملابسات من لوازم التنوير فلم يعد التنوير قاصرا على رفض الجهل ومحاربة الخرافة وإنما امتد معناه ليشمل تغيير العادات والسلوك والقيم والمفاهيم الثابتة في الشرق والمرتكزة على الأبعاد الدينية والخلقية وتطور ذلك عند البعض إلى رفض الإيمان بالغيب،فجعلوه من الخرافات التي نادوا بضرورة التخلص منها(١).

وهذا بلا شك هو أقصى درجات الرجعية التي يصفون الإسلام بها فكيف يرفضون الإيمان بالغيب التي قامت عليه الحضارة الغربية (الحضارة العلمية أو عصر العلم) الذي ينادون به فهؤلاء العلماء الغربيون يؤمنون بأشياء لا يشاهدونها فالعلم لا ينحصر في الأمور التي شوهدت بالتجربة المباشرة.فقد اخترعت كثير من الآلات والوسائل الحديثة للملاحظة الواسعة النطاق، ولكن الأشياء التي نلاحظها بهذه الوسائل كثيرا ما تكون أمورا سطحية ،وغير مهمة نسبيا.أما النظريات التي يتوصل إليها بناء على هذه المشاهدات فهي أمور لا سبيل إلى ملاحظتها ،والذي يطالع العلم الحديث يجد أن أكثر آرائه "تفسير للملاحظات" وأن هذه الآراء لم تجرب مباشرة ،ذلك أن بعض الملاحظات يحمل العلماء على الإيمان بوجود بعض حقائق غير مشاهدة قطعيا فأي عالم من علماء عصرنا لا يستطيع أن يخطو خطوة دون الاعتماد على ألفاظ مثل:"القوة" Force و"الطاقة" Energy و"الطبيعة " Nature و"قانون الطبيعة"Low of natureوما إلى ذلك ولكن العالم لا يدرى ما القوة والطاقة والطبيعة وقانونها فهو قد صاغ كلمات تعبر عن وقائع معلومة،لكي يبين علل غير معلومة وهذا العالم لا يقدر على تفسير هذه الألفاظ،تماما كرجل الدين لا يستطيع تفسير صفات الإله،وكلاهما يؤمن – بدوره– بعلل غير معلومة(٢).

---

(١) د/محمود حمدي زقزوق – بحث نشر في المؤتمر الثالث عشر،تحت عنوان :التجديد في الفكر الإسلامي، مايو ٢٠٠١م– ص ٢٩،بتصرف يسير.

(٢) وحيد الدين خان:الإسلام يتحدى ص٤٠،ص٤١.

يقول الدكتور"ألكسيس كيرل": (إن الكون الرياضي شبكة عجيبة من القياسات والفروض، لا تشتمل على شيء غير "معادلة الرموز"؛ الرموز التي تحتوى على مجردات لا سبيل إلى تفسيرها) [1].

والعلم الحديث لا يدعى، ولا يستطيع أن يدعى، أن الحقيقة محصورة فيما علمناه من التجربة المباشرة، فالحقيقة أن "الماء سائل"،ونستطيع مشاهدة هذه الحقيقة بأعيننا المجردة. ولكن الواقع أن كل (جزئ) من الماء يشتمل على ذرتين من الهيدروجين، وذرة من الأكسجين،وليس من الممكن أن نلاحظ هذه الحقيقة العلمية، ولو أتينا بأقوى ميكروسكوب في العالم، غير أنها تثبت لدى العلماء لإيمانهم بالاستدلال المنطقي.

ويقول البروفسور أ.ى.ماندير: "إن الحقائق التي نتعرفها مباشرة تسمى "الحقائق المحسوسة "Perceived Facts ، بيد أن الحقائق التي توصلنا إلى معرفتها لا تنحصر في "الحقائق المحسوسة"؛ فهناك حقائق أخرى كثيرة لم نتعرف عليها مباشرة ،ولكننا عثرنا عليها على كل حال ،ووسيلتنا في هذا السبيل هي الاستنباط ، فهذا النوع من الحقائق هو ما نسميه "بالحقائق المستنبطة "Inferred Facts". والأهم هنا أن نفهم أنه لا فرق بين الحقيقتين ،وإنما الفرق هو في التسمية ،من حيث تعرفنا على الأولى مباشرة ، وعلى الثانية بالواسطة ،والحقيقة دائما هي الحقيقة ، سواء عرفناها بالملاحظة أو بالاستنباط[2]. ويضيف ماندير قائلا:"إن حقائق الكون لا تدرك الحواس منها غير القليل ، فكيف يمكن أن نعرف شيئا عن الكثير الآخر ؟... هناك وسيلة وهى الاستنباط أو التعليل.وكلاهما طريق فكرى ، نبتدئ به بواسطة حقائق معلومة ، حتى تنتهي بنظرية : أن الشيء الفلاني يوجد هنا ولم نشاهده مطلقا "[3].

---

(١) Man the unknown ,p.١٥ نقلا عن وحيد الدين خان :الإسلام يتحدى ص٤١.

(٢) A.E.Mander,Clearer Thinking,Londonp٤٦. نقلا عن وحيد الدين خان :الإسلام يتحدى ص٤١.

(٣) المرجع السابق ،ص ٤٩.

وهنا نتساءل :كيف يصح الاستنباط المنطقي لأشياء لم نشاهدها قط ؟ وكيف يمكن أن نسمى هذا الاستنباط ، بناء على طلب العقل : حقيقة علمية ؟ ويجيب ما ندير بنفسه عن هذا السؤال :"إن المنهج التعليلي صحيح ، لأن "الكون" نفسه عقلي".

فالكون كله مرتبط بعضه بالآخر؛ حقائقه متطابقة ،ونظامه عجيب ،ولهذا فإن أية دراسة للكون لا تُسفر عن ترابط حقائقه وتوازنها – هي دراسة باطلة.ويقول ماندير في هذا الصدد : "إن الوقائع المحسوسة هي أجزاء من حقائق الكون ، غير أن هذه الحقائق التي ندركها بالحواس قد تكون جزئية ،وغير مرتبطة بالأخرى. فلو طالعناها فذة مجردة عن أخواتها فقدت معناها مطلقا . فأما إذا درسناها في ضوء الحقائق الكثيرة مما علمناه مباشرة أو بلا مباشرة ، فإننا سندرك حقيقتها ".

ثم يأتي بمثال سليم يفسر ذلك فيقول : "إننا نرى أن الطير عندما يموت يقع على الأرض ،ونعرف أن رفع الحجر على الظهر أصعب ،ويتطلب جهدا ،ونلاحظ أن القمر يدور في الفلك،ونعلم أن الصعود في الجبل أشق من النزول منه. ونلاحظ حقائق كثيرة كل يوم لا علاقة لإحداها بالأخرى ظاهرا.ثم نتعرف على حقيقة استنباطية – هي " قانون الجاذبية "،وهنا ترتبط جميع هذه الحقائق ،فنعرف للمرة الأولى أنها كلها مرتبطة إحداها بالأخرى،ارتباطا كاملا داخل النظام.وكذلك الحال لو طالعنا الوقائع المحسوسة مجردة،فلن نجد بينها أي ترتيب ،فهي متفرقة ،وغير مترابطة ،ولكن حين نربط الوقائع المحسوسة بالحقائق الاستنباطية فستخرج صورة منظمة للحقائق(1).

إن قانون "الجاذبية" لا يمكن ملاحظته قطعا،وكل ما شاهده العلماء لا يمثل في ذاته قانون الجاذبية الأرضية ،وإنما هي أشياء أخرى ،اضطروا لأجلها – منطقيا- أن يؤمنوا بوجود هذا القانون.

واليوم يلقى هذا القانون قبولا علميا عظيما ،وهو الذي كشف عنه نيوتن لأول مرة ،ولكن ... ما حقيقة هذا القانون من الناحية التجريبية؟... ها هو ذا نيوتن يتحدث في خطاب أرسله إلى (بنتلى) فيقول : " إنه لأمر غير مفهوم أن نجد مادة لا حياة فيها

(1) Clearer Thinking ,p. ٥١. نقلا عن وحيد الدين خان :الإسلام يتحدى ص٤٣.

ولا إحساس وهى تؤثر على مادة أخرى ، مع أنه لا توجد أيــة علاقــة بينهمـــا "[1] فنظرية معقدة غير مفهومة ،ولا طريق إلى مشاهدتها ،تعتبر اليوم ،بلا جدال،حقيقــة علمية!!!... لأنها تفسر بعض ملاحظتنا.فليس بلازم إذن أن تكون الحقيقة هـــي مـــا علمناه مباشرة بالتجربة ،ومن ثم نمضى إلى القول بأن العقيدة الغيبيــة التـــي تـــربط بعض ما نلاحظه ،وتفسر لنا مضمونه العـــام – تعتبـــر حقيقـــة علميـــة مـــن نفـــس الدرجة!...

يقول البروفيسور ماندير: "القول بأننا عرفنا الحقيقة يعنى :أننا عرفنا معناها، وبعبارة أخرى :أننا بحثنا عن وجود شيء ،وعن أحواله.ففسرناه .وأكثر عقائدنا تدخل في هذا النطاق ،فهي في الحقيقة :تفسيرات للملاحظة".عندما نذكر "ملاحظـــة"فإننـــا نقـــصد شـــيئا أكثـــر مـــن المـــشاهدة الحـــسية المحـــضة ،فمعناهـــا :"الملاحظـــة الحسية"و"التعرف"بما يشمل جانب التفسير"[2].

مما سبق فقد تبين شهادة العلماء أنفسهم واعترافهم بالغيبيات والمجردات التي لا سبيل إلى رؤيتها. ودليل وجودها هو الوقوف على آثارها فقط كالجاذبية والكهرباء بالإضافة إلى ما تقدم ذكره من القوة والطاقة وغيرها.

وبهذا فكيف ينكرون دعاة التنوير الدين لاعتماده على الغيبيات بـــالرغم مـــن اعتمادهم هم عليها في مجالهم العلمي الذي لا يرفضه الإسلام كما يدعون . فالإســـلام تحدث عن كثير من المكتشفات العلمية الحديثة فلو أنصف هؤلاء الدعاة إلى التنـــوير لبدأو دعوتهم من حيث بدأ الإسلام الذي يجعل العلم دينا وفريضة ويجعل حاكم العقـــل في عالم الشهادة ميزانًا لا يخطئ؛"ولو أنصفوا لفرقوا بـــين الإســـلام والكنيـــسة،وبين الشرق والغرب"[3].

مفهوم مصطلح التنوير في الإسلام:

في الحقيقة أن فهم دعاة التنوير لهذا المصطلح بعيد كل البعد عـــن الإســـلام وعن ما دعا إليه فمفهوم مصطلح التنوير في الإسلام يقوم على قاعدة راسخة تجمـــع

(١) المرجع السابق ص ٤٣.
(٢) Works of W;Bently,p.٢٢١. نقلا عن وحيد الدين خان :الإسلام يتحدى ص٤٣.
(٣) د/محمد السيد الجليند– التنوير بين المشروع الإسلامي والمشروع التغريبي ص ١٧.

بين العقل والعلم اللذين بدورهما يقودان إلى ترسيخ الإيمان بالله تعالى لأنه لا يوجد في الإسلام تعارض بين الإيمان بالله وبين العقل والعلم فقد احترم الإسلام العقل ودعا إلى العلم ورغب فيه وحث عليه ومدح العلماء المهتمون بالعلم فالقرآن الكريم المنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وهو الكتاب الذي تعهد الله بحفظه إلى أن تقوم الساعة قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩ ﴾ الحجر: ٩،حافل بالآيات التي تدعوا إلى احترام العقل والدعوة إلى استخدامه عن طريق النظر والتدبر في ملكوت الله تعالى فضلا عن الآيات التي حثت على العلم.

الدعائم التي ارتكز عليها التنوير:

ارتكز التنوير فئ الغرب على عدة دعائم أهمها دعامتي العقل والعلم، ومن ثم فقد كان من الضروري أن أوضح موقف الإسلام من كليهما.

موقف الإسلام من العقل:

أولى الإسلام العقل بعناية فائقة واهتم به اهتماما كبيرا وهيأ له الظروف المناسبة وأزال من طريقه العقبات حتى يستطيع ممارسة دوره كاملا في هذا الوجود ومن ثم فقد رفض التقليد الأعمى وقضى على الخرافات والأوهام (١) .

وقد حث القرآن الكريم على النظر والتفكر والتأمل في هذا الكون ودفع العقل دفعا إلى القيام بوظيفته التي خلق من اجلها وهى التفكير الذي يعد حقا طبيعيا للإنسان وغريزة فطرية مثل حقه في الحياة،ومن هنا كان الحفاظ على العقل حتى يستطيع القيام بأداء وظائفه المشروعة .

ولذا فنجد القرآن الكريم قد عاب على هؤلاء الذين لا يفكرون، أي لا يستخدمون عقولهم بل يصمون حواسهم وعقولهم عن طلب المعرفة أوالفهم. وبذلك يعطلون وسائل المعرفة لديهم من حس وعقل عن أداء وظائفها التي أرادها الله.

(١) د/محمود حمدي زقزوق- دور الإسلام في تطور الفكر الفلسفي ص ١٣-١٦-بتصرف.

وفي هذا الصدد يقول القرآن الكـريم: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ الأعراف: ١٧٩ .

ومن هنا كانت دعوة القرآن الكريم المتكررة إلى الإنسان لاستخدام ملكاته الفكرية حيث يقـول: ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ يـونس: ١٠١.ويقـول تعـالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ الأعراف: ١٨٥.وقال تعالى: ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ الذاريات: ٢١.وقـال تعـالى: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ الروم: ٨ .

فهذه دعوة صريحة من القرآن الكريم إلى النظر والتدبر فـي الكـون وفـي النفس ليصل الإنسان إلى الحقيقة بالمشاهدة الحسية التـي هـي أسـاس التجربـة العلمية.وتوجد أمثلة كثيرة للمتنورين الذين استخدموا العقل في منهجهم وفـي نفـس الوقت اعتزوا بالدين الإسلامي وجعلوا العقل في خدمته،فإذا نظرنا إلى فلاسفة الإسلام الذين كان منهجهم يقوم على أساس استخدام العقل نجد أنهم قد عملوا على التوفيق بين الدين والفلسفة المتمثلة في العلم والمعرفة،فعلى سبيل المثال نجد الكندي بـرغم سـعة معارفه الفلسفية وإحاطته الدقيقة بمذاهب الفلاسفة اليونانيين،وتمكنه من فلسفة أرسطو على وجه الخصوص،فإنه ذو قدم راسخة في الحقـائق الدينيـة،ودفاع الكنـدي عـن القضايا الدينية يدل على عقلية فلسفية واعية،وينم عن روح إيماني عميق يسرى فـي استدلالاته وبراهينه على قضايا الدين،وهو لا يتردد في أن "يخالف أرسطو فـي قـدم العالم ويؤكد العناية الإلهية وصفات الإله المبدع الفعال المدبر الحكيم،ويخـرج مـن

نظره الفلسفي بوجهة نظر عامة تقوم على فهم الدين بالعقل الفلسفي وينتهي إلى مذهب ديني فلسفي معا"(١).

وإذا نظرنا إلى أبن رشد فنجده يؤكد ارتباط الدين بالعقل ويعول على المطالبة بتحكم العقل إلا أن ذلك لم يكن يعنى لديه بأي حال من الأحوال رفض التعاليم الدينية،ليس فقط نظريا بل على المستوى العلمي والتطبيقي الواقعي أيضا، فكتابه (بداية المجتهد ونهاية المقتصد) أعظم شاهد على ذلك فلم يترك ابن رشد في هذا الكتاب لا شاردة ولا واردة من النظم التي تحكم معاملات الناس في المجتمع إلا وتناولها في كتابه المشار إليه موصلا لها على أسس إسلامية(٢).فابن رشد الذي هاجم الغزالي هجوما عنيفا في كتابه تهافت التهافت مدافعا عن العقل الإنساني ومؤكدا لدوره المعرفي رافضا لكل إنقاص من دور العقل هو نفسه الذي يقول في فصل المقال:"فإنا معشر المسلمين – نعلم على القطع بأنه لا يؤدى إلى النظر إلى مخالفة ما ورد به الشرع، فإن الحق لا يضاد الحق بل يوافقه ويشهد له"(٣) .

والغزالي الذي هاجم الفلاسفة هجوما عنيفا في كتابه تهافت الفلاسفة يمدح العقل الإنساني قائلا:"أنموذج من نور الله"(٤) .

ومما تقدم فقد تبين عدم التعارض بين العقل والدين الإسلامي فالعقل في الإسلام مسخر لخدمة النقل وتقويته ومن ثم فالعقل الذي ينادى به دعاة التنوير غير منفصل عن الدين الإسلامي حتى نفعل كما يرى هؤلاء الداعيين إلى ترك الدين الإسلامي لأنه يناقض العقل.

هذا كان عن العقل فماذا عن العلم الذي يرى دعاة التنوير المخطئون أنه مناقضا للدين الإسلامي.أقول لهؤلاء الذين أخطأوا الفهم لمصطلح التنوير أنهم طبقوا

---

(١) ينظر الكندي وفلسفته:د/محمد عبد الهادي أبو ريده، ص٥٨ ،وينظر :محمود حمدي زقزوق :الدين والفلسفة والتنوير ص ٥٠.

(٢) د/محمود حمدي زقزوق- الدين والفلسفة والتنوير ص ٨٢- ٨٤ ،وينظر ابن رشد:فصل المقال(ضمن كتاب:فلسفة ابن رشد) ، ص ١٩.

(٣) ابن رشد:فصل المقال، ص ١٩.

(٤) الغزالي- مشكاة الأنوار ص ٤٤.

التنوير الذي ظهر في أوروبا بكل ملابساته في المجتمع الإسلامي ولم يراعوا الفـرق بين الظروف التي دعت هؤلاء المخططين في أنفسهم أن يسيئوا إلى الإسلام ويتهموه بما ليس فيه فالخطأ الرئيس في منهج هؤلاء هو عدم إدراكهم الفرق بين حالة الأمة الإسلامية اليوم وحال رجال أوروبا في عصورها الوسطى المظلمة،التي لم تجد لنفسها مخرجا منها إلا بنبذ "الدين" أو في تحجيمه بحيث لا تكون له هيمنة في واقع الحياة،ومناداتهم من ثم بان علاج الأمة الإسلامية يجب أن يكون هو نفس العلاج الذي استخدمته أوروبا من قبل،وأدى بها إلى القوة والتمكين.

صحيح أن هناك تشابها بين بعض الأمراض التي أصابت الأمة الإسلامية في القرنين الأخيرين،وأمراض كانت موجودة في أوروبا في عصورها الوسطى،ولكن النظرة الفاحصة لابد أن تبين الفرق بين الأسباب،الذي تترتب عليه فروق في النتائج،وإن تشابهت بعض الأعراض[١] .

والسؤال الذي لا يفضل دعاة التنوير العلمانيون أن يسألوه هو السؤال عن أسباب الانحراف الذي كان واقعا في أوروبا في عصورها الوسطى، وأسباب الانحراف الذي وجد في الأمة الإسلامية في القرنين الأخيرين بصفة خاصة، هل هي واحدة حتى يكون العلاج واحدا،أم أنها أسباب مختلفة،فيكون لكل حالة علاجها الخاص ؟!.

لقد اقتنع دعاة التنوير العلمانيون بادئ ذي بدء بأن السبب هو "الدين"فلم يرغبوا في البحث عن شيء وراء ذلك وقرروا الابتعاد عن الدين ولكن قد أخطأ هؤلاء في قرارهم هذا.

صحيح أن الدين كان داخلا في الحالتين حالة أوروبا في عصورها الوسطى المظلمة،وحالة العالم الإسلامي في القرنين الأخيرين ولكن على صورتين مختلفتين تمام الاختلاف لا يجمع بينهما شيء،فلقد كان الظلام مخيمًا في أوروبا نتيجة دينا أفسدته الكنيسة الأوروبية بتصورات منحرفة، وسلوك طغياني أشد انحرافا، كان هذا هو كل ما عرفته أوروبا عن الدين، أما بالنسبة للعالم الإسلامي فقد كان الوضع

(١) محمد قطب: قضية التنوير في العالم الإسلامي ، ص ٣٤، ٣٥ بتصرف.

مختلفًا فقد كان الظلام الذي غشي العالم الإسلامي في القرنين الأخيرين نتيجـــة عـــدم إتباعهم للدين الصحيح الذي ارتضاه الله تعالى له ،والذي مكن الله لهم به فـــي الأرض عدة قرون.

ولهذا فالتباين بين الحالتين واضح كل الوضوح ففي الحالة الأولى كان الخلل في المفهوم الديني ذاته،ولذلك رأى رجال العلم أنه لا سبيل إلا بالتخلص من الـــدين – أما في الحالة الثانية فقد كان الخلل في سلوك البشر مع وجود الدين الـــصحيح وكـــان علاجه هو تصحيح هؤلاء البشر لسلوكهم المنحرف والعمل على العودة إلى الالتـــزام بقواعد الدين الإسلامي (١).

وبهذا فقد تبين خطأ دعاة التنوير الذين أخطأوا فهم هـــذا المـــصطلح.والآن وقبل الخوض في الحديث عن بيان عدم تعارض الدين الإسلامي مع العلم كما تبـــين عدم تعارضه مع العقل، لابد من التنبيه على حقيقة مهمة وهى بيان أن الـــدين الـــذي صار عليه دعاة التنوير في أوروبا الذي فرضه رجال الكنيسة عليهم ليس هو الـــدين الإلهي الذي نزل على عيسى عليه السلام .

فأوروبا لم تعرف دين الله المنزل على عيسى عليه السلام إنما الـــدين الـــذي عرفته هو دين وضعته المجامع الكنسية الأوروبية وفرضته فرضا على النـــاس هـــذا باعتراف المؤرخين على ذلك. يقول المؤرخ الإنجليزي "ويلز" : "فما يشير به يـــسوع كان ميلادا جديدا للروح الإنسانية، أما ما علّمه بولس فهو الديانة القديمة: ديانة الكاهن والمذبح،وسفك الدماء لاسترضاء الإله"(٢) .

ويقول "برنتون" : "إن المسيحية الظافرة في مجمع نيقية وهى العقيدة الرسمية في أعظم إمبراطورية في العالم مخالفة كل المخالفة لمسيحية المسيحيين في الجليـــل. ولو أن المرء اعتبر العهد الجديد التعبير النهائي عن العقيدة المسيحية لخرج من ذلـــك

(١) المرجع السابق ص ٣٤، ٣٥ بتصرف.

(٢) ويلز: معالم تاريخ الإنسانية / ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، ج٣ ص٥، ٧بتصرف، وأنظر : محمد قطب:قضية التنوير في العالم الإسلامي ص٣٦ بتصرف.

قطعا- لا بان مسيحية القرن الرابع تختلف عن المسيحية فحسب - بل بـــان مـــسيحية القرن الرابع لم تكن مسيحية بتاتا"[1].

ولم يقف الاعتراض على المسيحية الحالية على هذين الرجلين فقط بل يوجد غيرهما الكثير والكثير مما لا يتسع المقام لذكرهم.

ومن المعروف أن دين عيسى عليه السلام كان عقيدة وشريعة ككل الرسالات التي جاءت من عند الله تعالى،وكانت شريعته هي ما جاء في التوراة مع التعــديلات التي أنزلت على عيسى عليه الــسلام[2]. قــال تعــالى: ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝٥٠ ﴾ آل عمران: ٥٠ .وقال تعــالى: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ۝٤٧ ﴾ المائدة: ٤٧.

فالمتدبر للمعنى المقصود من الآية الكريمة هو أن الإنجيل كان يشتمل علـــى أحكام وشرائع أراد الله تعالى لصاحبه الحكم بها والعمل بها والعمل بما فيهـــا ولكـــن حدث على النقيض من ذلك،فقد كان النفوذ لرجال الكنيسة الأوروبية الذي لـــم يقـــف طغيانهم عند حد الطغيان الروحي فحسب بل كان طغيانا شاملا لكل جوانب الحياة.فقد كان طغيان مالي يفض على الناس عشور أمـــوالهم، ويفـــرض علـــيهم الإتـــاوات، ويسخرهم للعمل مجانا في أرض الكنيسة التي أصبحت بمـــرور الـــزمن مـــن ذوات الإقطاع، وطغيان فكرى يحدد للناس ما يجوز وما لا يجوز لهم أن يفكـــروا فيـــه،بل والطريقة التي يجب أن يفكروا بها على أن تكون تتلاءم مع رجال الدين، الذين لهـــم وحدهم حق تفسير النصوص الدينية وطغيان سياسي على الملوك والأباطرة يخضعهم لسلطات البابا، فلا يصبحون حكامًا شرعيين إلا بتنصيب البابا لهم، وطغيـــان علمـــي يتدخل في نظريات العلم بالرفض والإباحة،فلا يباح للعلمـــاء أن يقولـــوا إن الأرض كروية ، وإنها ليست مركز الكون، وتحرقهم الكنيسة أحياء حين يقولون ذلك، كما فعل

(١) جرين برنتون: أفكار ورجال ،ترجمة:محمود محمود ص ٢٠٧.

(٢) محمد قطب: قضية التنوير في العالم الإسلامي – ص ٣٦ بتصرف.

"بـــ جوردانو برونو"،وكما حكم على "كوبرنيكوس" الذي مات قبل تنفيذ الحكم، وعلى "جاليليو" الذي تظاهر بالارتداد فنجا "وإن كان في فراش الموت ظل يردد أن الأرض كروية حتى مات!" ولقد كان الطغيان العلمي بالذات ،وتحريق العلماء أحياء من أشـــد ما نفر الناس في أوروبا من الدين "دين رجال الكنيسة – الدين الوضعي".فلقد كان هذا الدين قبل أن تناله يد التحريف والتغير يشتمل على روحانيات هائلة لتقابـــل الماديـــة الطاغية التي كان يعيش بها بنو إسرائيل،الذين أرسل الله المسيح إليهم خاصة كما جاء في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ وَرَسُولًا ... إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٤٩﴾ ﴾ آل عمران: ٤٩ وقال تعـــالى: ﴿ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ... إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى ... إِلَيْكُم ﴿٦﴾ ﴾ الصف: ٦ .لكن الكنيسة حولت هذا الدين إلى رهبانية ما كتبها الله علـــيهم ولا علـــى غيرهم قال تعالى: ﴿ ... كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ ﴿٢٧﴾ ﴾ الحديـــد: ٢٧.

وتحول الدين بذلك إلى دين أخروي لا يحفل بالحياة ولا يـــشجع علـــى بـــذل الجهد فيها ولا يرحب بعمارة الأرض بل يعتبر ذلك كله استجابة لإغـــواء الـــشيطان، ومجلبة لغضب الله تعالى.وبالتالي فهذا الدين – بصورته التي قدمتـــه بهـــا الكنيـــسة الأوروبية- الذي صاحبه طغيان الكنيسة وحجرها على الأرواح والعقـــول لـــم يكـــن صالحا للحياة ، لا لأنه دين منزل من عند الله تعالى بل لأنه ديـــن وضـــعه رجـــال الكنيسة ونالته، وعبثت به يد التحريف والتبديل لأنه وهو بهذه الصورة يتعارض مـــع الدين الإسلامي الذي دعا إلى استخدام العقل كما أشير، ويحـــث علـــى طلـــب العلـــم ويرغب فيه "كما سيتضح فيما يلي" رغم أن الدين المسيحي الحق والإسلام جاءا مـــن مصدر واحد "من عند الله تعالى" فكان لا بد ألا يتعارضا في الأصول، ولكـــن الـــذي رأيناه كان بخلاف ذلك، ولهذا فليس من العجب أن لا تقبل أوروبا على هـــذا الـــدين وتتمرد عليه وتعلن الانفصال عنه.

ولذلك فلا بد من الوقوف على بعض القضايا التي تحدث عنها كل من الكتاب المقدس والقرآن الكريم، لنرى كيف تمت معالجة تلك القضايا في كليهما وأيهما اتفـــق مع ما كشفه العلم الحديث حتى نستطيع الحكم على أيهما بأنه يعارض العلم ويتنـــاقض

معه، ويتضح ذلك عند عقد مقارنة بين ما جاء في الكتاب المقدس في الحديث عن بعض القضايا العلمية وما ورد في القرآن الكريم وما قاله العلم في ذلك.

يقول "موريس بوكاي":في سفر التكوين تناقضات صريحة مع العلم المعاصر،وهى تقع في ثلاث نقاط أساسية:خلق العالم ومراحله – تاريخ خلق العالم وتاريخ ظهور الإنسان – رواية الطوفان.وقد قام موريس بوكاى بعرض تلك القضايا متناولا لها بالشرح والتعليق في كتابه "التوراة والإنجيل والقرآن والعلم" وقد اقتصرت على ذكر واحدة منها على سبيل المثال لنقف على هذا التناقض.يقول موريس بوكاى في الحديث عن خلق العالم "إن سفر التكوين كما نبه الأب دوفو يبدأ بروايتين متقاربتين عن الخلق وينبغي إذا شئنا اختبار مطابقتهما للمعطيات العلمية اختبار كل واحدة منهما على حدة.

ففي الرواية الأولى للخلق: يقول موريس بوكاى تشغل الرواية الأولى الفصل الأول والآيات الأولى من الفصل الثاني،إنها صرح من الأخطاء في نظر العلم ينبغي مواجهة نقضها مقطع بعد مقطع. مع العلم أن النص المسوق هنا هو من ترجمة المدرسة التوراتية في القدس(1) . فقد جاء في العهد القديم:" في البدء خلق الله السموات والأرض.وكانت الأرض خربة وخالية على وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه".(سفر التكوين ١:٣).

من النص السابق تبين المرحلة الأولى للكون كانت المياه تغمر كل شيء مع أنه قد ثبت علميا أن المرحلة البدائية لتكوين العالم كانت طبقة غازية، وأن من الخطأ وضع الماء مكانها(2).

"وقال الله ليكن نور فكان نور. ورأى النور أنه حسن. وفصل الله بين النور والظلمة. دعا الله النور نهارا والظلمة دعاها ليلا وكان مساء صباح يوما واحدا". (سفر التكوين ٣:٥). يعلق موريس بوكاى على هذا النص قائلا:

---

(١) موريس بوكاى: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم – ترجمة:الشيخ/حسن خالد، ص ٤٤.

(٢) نفس المرجع السابق ص ٤٤ بتصرف يسير.

إن النور الذي يملئ الكون هو نتيجة التفاعلات المركبة التي تجـرى علـى سطح النجوم. إذن في هذه المرحلة من الخلق،لم تكن النجوم قد تكونت بعـد، حسب إفادة التوراة، لأن "الأجرام المضيئة" في الفلك لم تذكر في سفر التكوين إلا في الآيـة ١٤ كمخلوق في اليوم الرابع "لفصل النهار عن الليل" "لإنـارة الأرض"وهـو دقيـق جدا.غير أنه من غير المنطقي ذكر الأثر الحاصل "النور" في اليوم الأول،في الوقـت الذي جعل فيه خلق السبب الفاعل لهذا النور"الأجرام المضيئة"بعد ثلاثة أيام.وفوق ذلك جعل وجود المساء والصباح في اليوم الأول هو أمر رمزي خالص فالمساء والصباح كعناصر لليوم غير قابلي الإدراك إلا بعد وجود الأرض ودورانها تحت إضاءة نجمها الخاص الشمس .

"وقال الله ليكن جلد في وسط المياه وليكن فاصلا بين مياه وميـاه فعمـل الله الجلد وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد.وكان كذلك.ودعـا الله الجلد سماء. وكان مساء وكان صباح يوما ثانيا". (سفر التكوين ٦:٨).

وأسطورة المياه تتابع هنا مع فصلها إلى طبقتين بواسطة جلد يسمح بتـسرب المياه كما هي رواية الطوفان من فوق الجلد لتنصب على الأرض.إن هـذه الـصورة لانشطار المياه إلى كتلتين غير مقبولة علميا.

"وقال الله لتتجمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد ولتظهر اليابسة وكـان كذلك. ودعا الله اليابسة أرضا.ومجتمع المياه دعاه بحارا.ورأى الله ذلك أنه حسن."

"وقال الله لتنبت الأرض عشبا وبقلا يبرز بذرا وشجرا ذا ثمر يعمـل ثمـرا كجنسه بذره فيه على الأرض.وكان كذلك. فأخرجت الأرض عشبا وبقلا يبرز بـذرا كجنسه وشجرا يعمل ثمرا بذره فيه كجنسه.ورأى الله ذلك أنه حسن وكان مساء وكان صباح يوما ثالثا". (سفر التكوين ٩:١٣).

وكون الأرض في عصر ما من تاريخها مغمورة بالماء،ثم ظهـور اليـبس منها،مقبول تماما علميا.. بيد أن ظهور وجود نباتي شديد التنظيم،مع تكون من الحب قبل وجود الشمس"وهذا سيكون كما يقول سفر التكوين في اليوم الرابع"وهكذا تحقـق تعاقب النهار مع الليل فشيء ليس له أساس.

"وقال الله لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل. وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين.وتكون أنوارا في جلد السماء لتنير على الأرض وكان كذلك.فعمل الله النورين العظيمين.النور الأكبر لحكم النهار والنور الأصغر لحكم الليل والنجوم.وجعلها الله في جلد السماء لتنير على الأرض ولتحكم على النهار والليل ولتفصل بين النور والظلمة.ورأى الله ذلك أنه حسن.وكان مساء وكان صباح يوما رابعا"..

إن وصف الكاتب التوراتي مقبول هنا.والنقد الوحيد الذي يمكن توجيهه إلى هذا المقطع هو تحديد المكان الذي يشغله في مجموع الرواية.فالأرض والقمر قد انفتقا – وهذا معروف – من نجمهما الأم ألا وهو الشمس.فوضع خلق الشمس والقمر بعد خلق الأرض هو في غاية المناقضة لأوثق المفاهيم المعتمدة في تكوين عناصر المجموعة الشمسية.

"وقال الله لتفض المياه زحافات ذات نفس حية وليطر طيرا فوق الأرض على وجه جلد السماء. فخلق الله التنانين العظام وكل ذوات الأنفس الحية الدبابة التي فاضت بها المياه كأجناسها وكل طائر ذي جناح كجنسه. ورأى الله ذلك أنه حسن. وباركها الله قائلا أثمري وأكثري وأملأى المياه في البحار. وليكثر الطير على الأرض. وكان مساء وكان صباح يوما خامسا". (سفر التكوين ٢٠:٣٠).

يحتوى هذا المقطع مزاعم غير مقبولة،لأن ظهور النوع الحيواني بدأ كما يقول سفر التكوين أولا من الحيوانات البحرية والطيور.ولكن رواية التوراة تفيدنا بأن الأرض ستكون في اليوم التالي. ومن هنا أصبحت الأرض مستعمرة – إذ جاز التعبير عنه – للحيوان. ومن هذه الحيوانات الحية على وجه الأرض صنف خاص من الزواحف تسمى Pseudosuchiens ، كانت تعيش في العصر الثاني الذي ظهرت فيه الطيور. ويجيء هذا الاستنتاج،الخصائص الحيوانية المشتركة الكثيرة بين هذين الصنفين.والحيوانات الأرضية لم تذكر في سفر التكوين إلا في اليوم السادس بعد ظهور الطيور. وهذا النظام لظهور الحيوانات الأرضية والطيور ليس مقبولا.